حولية الكوفة

دورية سنوية محكمة، تعنى بالدراسات والبحوث التراثية والمعاصرة المتخصصة بشؤون مدينة الكوفة ومسجدها المعظم
تصدر عن أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به - العدد الاول - شهر رمضان - ١٤٣٢هـ / آيار - ٢٠١١م

١

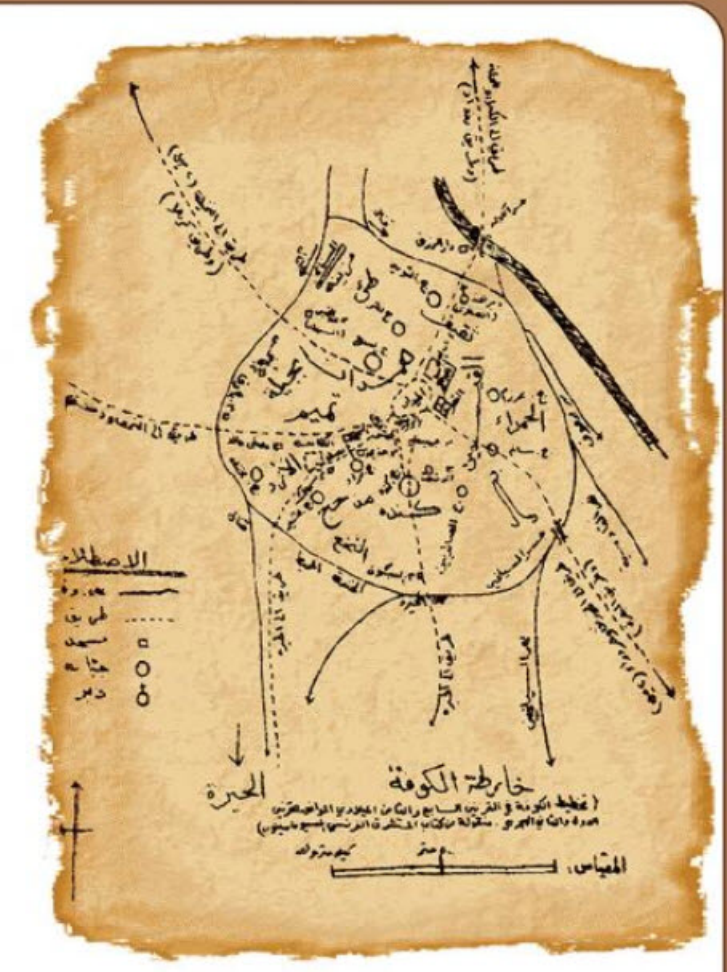

ديوان الوقف الشيعي
أمانة مسجد الكوفة
والمزارات الملحقة به

المشرف العام
السيد موسى تقي الخلخالي

رئيس التحرير
د. كامل سلمان الجبوري

نشوء مدينة الكوفة الحديثة وتطورها حتى الحرب العالمية الأولى

الأستاذ الدكتور طارق نافع الحمداني

كلية الآداب- جامعة بغداد

١- توطئة

اهتم بعض الباحثين العراقيين بدراسة تاريخ الكوفة الحديث، ومنهم الأستاذ كامل سلمان الجبوري في مؤلفه الموسوم «تاريخ الكوفة الحديث ١٨٦٠-١٩٧٣»، معتمدا في ذلك على المصادر المحلية، سواء أكانت بشكل مخطوطات أو كتب مطبوعة ومن بينها كتاب البراقي المعروف بـ (تاريخ الكوفة)[١].

لم تتح الفرصة أمام هذا الباحث للاطلاع على المصادر الأوربية المعاصرة، بخاصة كتب الرحلات التي زار أصحابها المنطقة وكتبوا عنها معلومات غاية في الأهمية تتعلق بطبيعة التحولات التي مرت بها، وبخاصة تحول مجرى نهر الفرات باتجاه الكوفة، ذلك التحول الذي كان حجر الزاوية في نشوء الكوفة الحديثة وتطورها.

وهناك الرسالة العلمية التي كتبها الأستاذ محسن عبد الصاحب المظفر والتي طبعت تحت اسم «مدينة النجف الكبرى: دراسة في نشأتها وعلاقاتها الإقليمية» حيث تطرق فيها الباحث إلى جملة أمور تخص الكوفة الحديثة، مشيرا في ذلك إلى المصادر المختلفة، سواء أكانت عربية أم انكليزية، فضلا عن بعض التقارير البريطانية التي كتبت خلال فترة الاحتلال البريطاني للعراق ١٩١٤-١٩١٨، وهي التي سلطت الضوء بشكل مركز على تحركات القبائل العربية في العراق عامة، وفي منطقة الفرات الأوسط الخاصة، ومن بينها مدينة الكوفة الحديثة وأطرافها.

وتتبع الأستاذ حمود الساعدي في مقالاته (الفراتية)، ما يخص الأمكنة والحوادث المتعلقة بمنطقة الفرات نخص بالذكر منها (فرات الهندية)، و (بحر النجف)، التي تعرض فيها للتحولات التي حصلت في هذه المنطقة خلال العصور الإسلامية والحديثة. وإلى جانب ذلك فقد كتب الأستاذ يعقوب سركيس حول هذه الموضوعات أيضاً، وذلك في كتابه المعروف بـ (مباحث عراقية) وإحدى مقالاته الموسومة (ماء النجف في القرون الأخيرة).

ومع ذلك كله، فأن التطور التاريخي الحديث الذي مرت به الكوفة منذ بداية نهوضها في العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر وحتى الحرب العالمية الأولى، لم يحظ حتى الآن بدراسة وافية، تكشف طبيعة التحولات السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية والعمرانية، وهذا ما سنحاول تحقيقه اعتمادا على ما تيسر لنا من كتب الرحلات الأوربية المعاصرة، والكتب الانكليزية ذات الصلة بالموضوع بخاصة كتاب لوريمر المعروف بـ (دليل الخليج)، القسم الجغرافي. ويعد هذا الكتاب من أهم الكتب قاطبة ذلك لأن مؤلفه قد كتبه أحد المسؤولين البريطانيين، فتناول المدن العراقية، ومن بينها مدينة الكوفة، من حيث تاريخ نشأتها، وسكانها وعمرانها، ومصادر الثروة فيها، زراعية كانت أم تجارية.

٢- تحول مجرى نهر الفرات ومروره بالكوفة:

لأنهار العراق تاريخ معقد، نظرا للتغير المستمر في مجاريها، وهذا ما كان يحدث للفرات أيضا. فمن المعروف إن الفرات كان يجري في العصور الإسلامية في الاتجاه الذي يجري في نهر الهندية الحالي، حيث يمر بالكوفة وينتهي بالبطائح. ويعد الدكتور أحمد سوسة هذا التحول الطور الخامس في سلسلة التحولات

(١) ركّز البراقي المتوفى عام (١٩١٢)، على تاريخ الكوفة في العهود الإسلامية حتى اندثارها في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، ولم يرد أي ذكر للعهود الحديثة إلا في الصفحتين الأخيرتين. إلا أننا لا نعرف فيما إذا كانت هاتين الصفحتين من مدونات المؤلف، أو أن المحقق السيد محمد رضا صادق بحر العلوم قد أضافها إلى الكتاب، حيث يصعب التفريق بين ما كتبه المؤلف وما أضافه المحقق.

التي مر بها نهر الفرات، الذي يرجع تاريخه إلى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر.

أخذ الفرات يجري باتجاه الكوفة بفضل المشروع الذي قام به آصف الدولة-وزير محمد شاه الهندي-من أجل إيصال المياه إلى مدينة النجف، إلا أن المشرفين على المشروع قد حولوا اتجاهه وجعلوه يمر بالكوفة وغيرها من المدن الأخرى عوضا عن جعله مستقيما، وهذا ما أكده أبو طالب خان الذي زار المشروع أثناء مداومة العمل به، حيث قال:(١)

أمر آصف الدولة بحفر (نهر الهندي) لإرواء النجف، ولكن باشا بغداد والناظر في شؤون القناة جعلوها تمر بالكوفة ومدن أخرى عديدة، بحيث لاتزال بعيدة الوصول إلى موضعها المتصور، والأعمال مداوم عليها(٢)

عرف هذا النهر فيما بعد بـ(نهر الهندية) وأخذ يمر بالكوفة، وهذا ما كتبه المنشئ البغدادي في رحلته عام١٨٢٢، حيث قال: (ويمر نهر الهندية قريبا من الكوفة)(٣). وجدير بالذكر فإن القناة التي وصلت إلى الكوفة عرفت (بكري سعد)(٤).

أخذ المجرى الجديد يتسع تدريجيا على حساب فرع شط الحلة الذي كان يؤلف مجرى الفرات الرئيسي في ذلك الوقت، وما أن حلت سنة١٨٨٥، حتى كاد فرع نهر الحلة أن يجف، بفعل تحول مجرى مياه النهر قريبا إلى مجرى نهر الهندية. فعندما كتب لي سترنج **Le Strange** عن أنهار العراق عام١٩٠٥، أشار إلى فرع الحلة بكونه المجرى الرئيسي لنهر الفرات، إلا أن المياه في عام١٩٠٩ أخذت تتدفق إلى الجنوب في فرع الكوفة (نهر الهندية)، وإن فرع الحلة قد أصبح جافا حتى في الشتاء(٥) صادف مجرى نهر الهندية أراضي منخفضة، فشق طريقه إلى بحر النجف في الربع الأول من القرن التاسع عشر، وغمرت مياه النهر مساحات واسعة من الأراضي فظهرت أهوار كثيرة منها: هور الدخن، والعوينة، وأبو طرفة، وهور الكفل، وبحيرة يونس، وبحر الشنافية، وبحر النجف، حتى أن السفن القادمة من البصرة كانت تصل إلى النجف عبر هذا المنخفض الأخير(٦)

ومما يذكر في هذا الشأن أن فرع الهندية ظل ردحا من الزمن يفيد الأراضي الممتدة في جانبيه بمياه الري والغرين الذي تحمله. لكن الإهمال أدى إلى أن يفيض فيغرق مساحات كبيرة من الأرض، فتكونت عن ذلك بمرور الزمن مستنقعات وقد قدر (جون أشر) طول هذه المستنقعات (التي يراد بها بحر النجف) بحوالي ستين إلى سبعين ميلا(٧)

حصلت تطورات كثيرة في ثمانينات القرن التاسع عشر. ففي عام١٨٨٧-كما يقول الشيخ حمود الساعدي-سعى وكيل السنية،(دائرة الأراضي التابعة لأملاك الدولة العثمانية) واسمه عبد الغني إلى تجفيف بحر النجف لغرض الاستفادة من أرضه، وعندئذ تحول المرسى من النجف إلى الكوفة الحالية، التي أطلق عليها أول الأمر شريعة الكوفة، لكون أن الكوفة القديمة كانت مندرسة، ولم يبق منها سوى مسجدها التاريخي(٨)

وعند مقارنة هذا التاريخ-١٨٨٧-بما ورد في المصادر والرحلات الأوربية نجد ما يؤيد ذلك فهذا جون بانيت بيترز الذي ركب أحد السفن في بحر النجف كتب لنا في كتابه نفر أو اكتشافات ومغامرات على الفرات١٨٨٩-١٨٩٠، عن ظاهرة قطع الفرع الموصل إلى النجف، وجفاف (بحر النجف) بقوله:

ولقد اندهشت كثيرا في خلال السنوات القليلة الماضية، جف الجزء الغربي العميق الذي كان يصل إلى النجف بصورة كلية، ونتيجة لذلك فإن القوارب لم تعد قادرة على الوصول إلى هذه المدينة. أما الجزء الشرقي من الماء الضحل فما زال كما هو موصوف في الخرائط إن جزءً من القسم الشرقي ليس إلا بطائح، تجف في الخريف والشتاء، ولكنها تبرز في موسم الربيع والصيف

(١) وادي الفرات ومشروع سدة الهندية (مطبعة المعارف) بغداد، ١٩٤٥). ج٢ ص٢٦١.

(٢) رحلة أبي طالب خان إلى العراق وأوربا سنة١٢١٣هـ/١٧٩٩، ترجمها عن الفرنسية إلى العربية الدكتور مصطفى جواد (مطبعة الإيمان، بغداد،١٩٦٩) ص٣٩٣؛ انظر أيضاً يعقوب سركيس، مباحث عراقية (بغداد،١٩٥٥) ج٢ ص٦٣-٤.

(٣) محمد بن السيد أحمد الحسيني المعروف بالمنشئ البغدادي، رحلة المنشيء البغدادي، نقلها عن الفارسية عباس العزاوي (بغداد، ١٩٤٨) ص٩٢.

(٤) حسين بن أحمد البراقي (ت.١٩١٢)، تاريخ الكوفة حرره وأضاف إليه السيد محمد صادق بحر العلوم (منشورات المكتبة الحيدرية ومطبعتها،ط٣، ١٩٦٨؛ ص١٨١؛ انظر أيضاً: John P.Peters, Nippur or explorates and adventures on the Euphrates ١٨٨٨-١٨٩٠, a.p. Puntnam's Sons, Newyovlc, and London, ١٨٩٨), Vol. ll,pp.٣٢٦-٧.

(٥) انظر ذلك في: Certrude L. Bell, Amurath to Amurath (Macmillian and Co. Ltd, London, ١٩٢٤), P. ١٦٤.

(٦) البراقي، المصدر السابق، ص١٨١. ويصف لنا لوشر Locher بحر النجف فيقول: هناك مجرى صغير لا يزيد طوله على خمسة أميال، يربط بحيرة الهندية ببحر النجف، وهو بحر أو بالأحرى هور ويقع في طرفه الشمالي قرية مشهد علي (أي النجف) لمسافة خمسة أميال جنوب غربي الكوفة، وفي الطرف الجنوبي تقع قرية الشنافية.
A. Locher, With star and Cresent (Philadelphia Aetna Publishing Co.١٨٨٩), P.٢١٥.

(٧) مشاهدات جون أشر في العراق-١٨٦٤، ترجمة جعفر خياط، مجلة سومر، المجلد ٢١الجزء ١-٢(١٩٦٥) ص١٠٧.

(٨) أمكنة وحوادث فراتية أهملها التاريخ «فرات الهندية»، مجلة الإيمان (النجفية)، العددان الأول والثاني، السنة الثانية كانون الثاني وشباط (١٩٦٥) ص٨٩؛ وللمؤلف نفسه أيضاً: «بحر النجف» مجلة الإيمان، العددان الثالث والرابع، السنة الثانية (١٩٦٥)، ص١٣٩.

على شكل جزر في وسط المياه[١].

إن التطورات التي أعقبت جفاف بحر النجف، قد قادت إلى ازدياد أهمية الكوفة، حيث أخذت السفن الواردة من البصرة إلى النجف، تحط في الكوفة بدلا من النجف، فساعد هذا على نمو الكوفة وتطورها-كما سنرى-.

٣- مدينة الكوفة وتطورها

أ- نمو مدينة الكوفة:

لقد أصبح معروفا إن الخراب قد حل بمدينة الكوفة القديمة منذ القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، فاندثرت مبانيها، وهجرها أهلها، ولم يبق منها إلا مسجدها الشهير يقاوم عوادي الزمن وحده، بينما فقدت المدينة التي كانت أول عاصمة إسلامية في العراق مكانتها، وبقي مسجدها مجرد محطة لاستراحة المسافرين الذين يقصدون النجف لشأن من الشؤون[٢]

مهدت عوامل كثيرة لنشوء الكوفة الحديثة فعملية تحويل مجرى نهر الفرات إلى الهندية، وإيصال الماء إلى الكوفة، قد صاحبه عملية استقرار بعض القبائل العربية على جانبي النهر، كال فتلة، وبني حسن والحميدات وآل شبل وآل زياد وغيرهم. وعملت هذه القبائل بمرور الزمن على استقلال مياه النهر والإفادة منه لزراعة الأشجار والبساتين والمزارع الكثيرة[٣].

صاحب عملية الاستقرار على جانبي النهر، بناء بعض بيوت القصب، ويحدد البراقي ذلك بعام ١٢٩٠هـ/١٨٧٣م. حيث يقول:

«فنزلها (رأي الكوفة) بعض النازلين بالقرب من مقام النبي يونس عليه السلام فكثر سكانها فأحدثوا بساتين على جانبي الفرات، وبنوا فيها حماماً وبركة ماء، فأخذت البلدة بالعمران شيئا فشيئا»[٤].

ومن مقارنة هذا النص بما ورد في الرحلات الأوربية، يبدو أن عملية الاستقرار في الكوفة وبناء بيوت القصب فيها قد سبق هذا التاريخ. ذلك أن جون أشر، عضو الجمعية الملكية البريطانية بلندن، عندما زار الكوفة في كانون الأول عام ١٨٦٤ «أشار إلى بعض الأكواخ القائمة على ضفة النهر»[٥].

ومن المعلومات التي أوردها الأستاذ كامل سلمان الجبوري، هناك إشارات إلى بناء بيوت من البردي والقصب والسفن في الكوفة منذ عام ١٢٨٠هـ/١٨٦٠م، مما جعلها تأخذ شكل قرية صغيرة، وظلت تتطور حتى أصبحت عام ١٣٠٠هـ/١٨٨٢م ناحية تابعة لقضاء النجف، سنجق كربلاء، ولاية بغداد[٦]

ولعل من العوامل المهمة في تطور عمران بلدة الكوفة الحديثة، ما أعقبت جفاف بحر النجف وشحة المياه في مدينة النجف عام ١٣٠٥هـ/١٨٨٧م، حيث أقدم الناس-كما يؤكد البراقي-على بناء الدور والأسواق والحمامات في الكوفة[٧].

إن نشوء بلدة الكوفة الحديثة، واتساعها على ضفة النهر وحول المسجد، قد أثار انتباه الرحالة الأوربيين وإن اختلفوا في وصفها. فالرحالة الأمريكي بيترز Peters، الذي زار الكوفة عام ١٨٩٠، لم يحسبها سوى قرية صغيرة حيث قال:

«ولا يرى (في الكوفة) إلا بقايا أسس بناء ما زالت مبثوثة قرب المسجد، أو أنها مبعثرة ما بين أشجار النخيل والأكواخ، وهي دلائل لقرية حديثة بائسة، وحتى هذه البقايا سرعان ما اختفت لأنها أصبحت المادة الرئيسية في البناء لأهل النجف»[٨].

وأعطى سير وليس بدج صورة «البلدة» للكوفة إلا أن هذه الصورة لم تكن مشرقة في نظره، حيث يقول عام ١٨٩٠-١٨٩١:

«كانت حالة البليدة (الكوفة) تاعسة وبيوتها متداعية، كما أن الأرض المحيطة بها لا تعدو أن تكون بلقعا خرابا»[٩]

لم تكن الصورة التي رسمتها غرترود لوثيان بل Gertrude Lowthian Bell عن الكوفة في العقد الأول من القرن العشرين، بأحسن حالا مما أورده الرحالة الأوربيون في نهاية القرن التاسع عشر، إذ تقول: «وهي الآن (أي الكوفة) قرية صغيرة بائسة، تتخذ شكلا عنقوديا حول الجامع الكبير»[١٠]

علما أن ما ذكرته (بل) لم يكن منطقيا مع طبيعة التطورات التي مرت بها المدينة، كما أن لوريمر، القنصل البريطاني الذي كتب كتابه المعروف «دليل الخليج» في العقد الأول من القرن العشرين، قد أشار إلى الكوفة على أنها «مدينة» وذلك بقوله «ولا يزيد عمر المدينة الجديدة عن عشرين عاماً»[١١] وتؤكد هذه الإشارة التطور الكبير الذي شهدته الكوفة، بحيث أنها تحولت إلى مدينة قائمة؛ هذا الحدث الذي برز بصورة واضحة في ثمانينات القرن التاسع عشر، واستمرت المدينة بالنمو والاتساع حتى أصبحت مدينة عامرة في الحرب العالمية الأولى

---

(١) Peters, op. Cit, Vol.II,p.٣١٥ ج.ج. لوريمر، دليل الخليج، القسم التايخي، ترجمة مكتب صاحب السمو أمير دولة قطر (مطابع علي بن علي)، الدوحة، قطر، د.ب) ج٤ ص٢٢٦٩.

(٢) البراقي، المصدر السابق، ص٤٣٣؛ انظر أيضاً د. عماد عبد السلام رؤوف، البراقي مؤرخ الكوفة، بحث منشور مقدم لندوة الكوفة لعام١٩٩٣، ص١٢.

(٣) البراقي، المصدر السابق، ص١٨١.

(٤) المصدر نفسه، ص٤٣٣.

(٥) جون أشر، المصدر السابق، ١٠٩.

(٦) تاريخ الكوفة الحديث، ج١ص٢٣٧؛ غير أن المؤلف لم يشر إلى المضان التي استقى منها معلوماته، حيث أن ذلك يوفر فرصة ثمينة للباحثين للاطلاع عليها.

(٧) المصدر نفسه، ص٤٣٣.

(٨) Nippur, Vol.١١p.٣٢٦.

(٩) رحلات إلى العراق، نقله إلى العربية وقدم له وعلق عليه فؤاد جميل (مطبعة شفيق، بغداد، ط١، ١٩٦٨) ج٢ص١٧٧.

(١٠) Amurath to Amurath (Macmillian and co. Ltd, London, ١٩٢٤),P.١٦٤.

(١١) لوريمر، دليل الخليج، القسم الجغرافي، ج٣ص١٢٨٦.

ب- ازدياد سكان الكوفة وعمرانها

قدر لوريمر عدد سكان الكوفة في حدود سنة ١٩٠٤-١٩٠٥ بنحو ثلاثة آلاف نسمة، يسكنون ٦٠٠منزلا معظمها من الحجر والطين. ولا يشمل هذا التقرير كما يقول لوريمر-سكان مدينة النجف الذين يمتلكون منازل أو مكاتب في الكوفة ويترددون عليها للنزهة أو العمل[١].

ازداد سكان الكوفة في السنوات التالية، وقدرهم البراقي وفق الإحصاءات الأخيرة كما يقول بنحو ١٥٠٠٠نسمة[٢] إلا أن هذا التقدير يبدو كبيرا-أن لم يكن مبالغا فيه-إذا ما قارناه بتقدير لوريمر لعام ١٩٠٤-١٩٠٥، أو وفق ما ذكره كامل سلمان الجبوري من أن عدد نفوس الكوفة يبلغ نحو أربعة آلاف نسمة تقريبا آنذاك[٣].

وعلى أية حال، فإن عدد سكان المدن العراقية كان ينمو باستمرار نظرا لعملية الزحف الدائب الذي تقوم به القبائل العربية من مراكزها الصحراوية نحو مراكز الأرياف ثم مراكز المدن الكبرى، ولم تكن الكوفة بعيدة عن مثل هذه العمليات. فجون أشر مثلا الذي غادر النجف في ٤كانون الثاني ١٨٦٥، أشار إلى «أن الطريق البري الممتد بين الكوفة والكفل كان يهدده أعراب عنزة في ذلك الوقت»[٤] هذا وقد أشار في الوقت نفسه إلى بعض «الأعراب الذين كانوا يسكنون في أكواخ متآلفة من حزم طويلة من القصب الذي كان ينمو بكثرة في كل مكان بحيث يغطي مجموعات الأكواخ ويحجبها عن الرائي في بعض الأحيان»[٥].

وهكذا نلاحظ أنواع مختلفة من القبائل كانت تحيط بالمدن، ومن بينها الكوفة، وكانت هذه القبائل تتقدم باستمرار نحو المدن لتدخلها عندما تجد أية فرصة مناسبة فبدج مثلا عندما زار العراق عام ١٨٩٠-١٨٩١، وجد بأن مضارب الأعراب أصبحت لا تعدو مسافة ساعة عن الكوفة وهي «كائنة-جنوبي البليدة-أي الكوفة»[٦].

ظلت التحركات القبلية قائمة حتى الحرب العالمية الأولى فعند وصول الوا موسيل منطقة الفرات الأوسط عام ١٩١٥، زار الزعيم القبلي دغيم بن براق (أبو براك)، زعيم قبائل بني حسن، الذي أقام خيامه في الجنوب الغربي من الكوفة وقد أظهر هذا الزعيم القبلي تذمره من إجراءات الحكومة في جمع الضرائب من الناس باسم «ضريبة الحرب» وقد أصبحت هذه القبائل البدوية كما يلاحظ-تمتهن الزراعة في المناطق المحيطة بالكوفة حيث يقول: «لقد زرعنا الأراضي الواقعة بين الكوفة والجعارة منذ عصور سحيقة وكانت ملكنا دائما، ملك أجدادنا، وقد ورثناها عنهم. واليوم تنوي الحكومة أن تأخذ هذه الممتلكات منا. وقبل عشر سنين قام فريق من أهل النجف، ولاسيّما عبد الحسين ششترلي، السيد مهدي، وحسين الهجراوي، برشوة موظفي الحكومة للحصول على مستندات الملكية لأراضينا وتسجيلها بأسمائها إذ أصبحوا يطالبوننا بالاعتراف بأنهم المالكون الحقيقيون، وأننا مستأجرون فحسب، وتؤيدهم الحكومة في هذا الأمر إلى حد منها أرسلت الدرك ضدهم منذ حين»[٧].

وأشار موسيل نفسه إلى أن بعض رجال دغيم بن براق كانوا يقيمون في خيام ولكنهم كانوا ينقلون خيامهم إلى مواضع أقرب إلى الفرات، وإن قسما منهم كانوا يسكنون في أكواخ أقاموها حول البساتين[٨].

يميل سكان الكوفة إلى الزراعة والتجارة والعمل بالمراكب والزوارق النهرية، ولذلك فإن لوريمر وهو يتحدث عن هذه المدينة عام ١٩٠٤-١٩٠٥ يقول:

«وتحيط بالكوفة من جميع جهاتها مزارع النخيل الممتازة، كما أن هناك مناطق كثيرة مزروعة بالبساتين والحدائق على الضفة اليسرى للهندية ولكنها تابعة لمدينة الكوفة، وتنتج كميات كبيرة من الفواكه والخضراوات حسب مواسمها»[٩].

ولا تختلف الأوصاف التي دونها البراقي عن الكوفة مما ذكره لوريمر، وإنما يؤكد أن المدينة «تحيط بها الحدائق وتكتفنها البساتين الجميلة»[١٠].

أما بالنسبة للتجارة، فمنذ أن ظهرت الكوفة الحديثة عند النهر، قرب أطلال الكوفة القديمة، حتى أخذت هذه المدينة تتقدم كثيراً وتنشط تجارتها. وكانت أولى الإشارات التي جاءتنا عن استخدام مرسى الكوفة لحركة السفن، قد أوردها جون أشر عند قدومه إلى النجف وعودته منها فعند القدوم عام ١٨٦٤ استقل«سفينة شراعية من طويريج إلى الكوفة، وقد كانت سفينة متسعة متينة الصنع فيها رفل واحد وشراع كبير، إلا أنّ حركة الهواء لم تكن كافية لتسيير السفن، لذلك اضطر

(١) المصدر نفسه، ج٣ ص١٢٨٧.
(٢) البراقي، المصدر السابق، ص٤٤٤ولم يشر البراقي إلى نوع السجلات الرسمية التي استعملها.
(٣) الكوفة في ثورة العشرين (مطبعة الآداب في النجف، ط١، ١٩٧٢، ص٣٣.
(٤) أشر، المصدر السابق، ص١١٠.
(٥) المصدر نفسه.
(٦) رحلات إلى العراق، ج٢ ص١٧٨.
(٧) موسيل، الفرات الأوسط، دراسة وصفية ودراسات تاريخية، ترجمة الدكتور صدقي حمدي والأستاذ عبد المطلب عبد الرحمن داود (مطبوعات المجمع العلمي العراقي، بغداد، (ت) ص١٤٦-٧.
(٨) المصدر نفسه، ص١٤٨.
(٩) دليل الخليج، القسم الجغرافي، ج٣ ص١٢٨٧.
(١٠) تاريخ الكوفة، ص٤٤٤.

الملاحون إلى سحبها بالحبل خلال مسافات طويلة»[١] وفي العودة من النجف عام١٨٦٥، فقد استقل من الكوفة سفينة شراعية. وكما هو الحال في قدومه فإن حركة الرياح كانت في اتجاه معاكس يوم ذاك، ولذلك فقد كانت السفينة تسحب طوال الوقت، واستغرق قطع المسافة من الكوفة إلى الكفل ثماني ساعات متواصلة. وكان السفر بالسفن شيئاً لا بد منه لأن الطريق البري الممتد بين الكوفة والكفل كانت تهدده عشائر عنزة[٢].

احتلت الكوفة مكانة تجارية خاصة وذلك منذ أن تحول مجرى مياه بحر النجف عام١٣٠٥هـ/١٨٨٧م إليها. وعندئذ انتقلت حركة الملاحة النهرية إلى مرسى الكوفة «شريعة الجسر» لتصبح أهم ميناء في الفرات الأوسط للسفن التجارية الذاهبة إلى البصرة والعائدة منها[٣].

مارست الكوفة مثل هذا الدور التجاري حتى في مطلع القرن العشرين ففي حديث لوريمر عنها عام١٩٠٤-١٩٠٥قال:

«تعتبر الكوفة ميناء مدينة النجف وقد أصبحت الآن مركزاً تجارياً عاماً توزع منه البضائع إلى قطاعات واسعة من المناطق المجاورة، وخصوصاً تلك التي تشحن بالسفن من مدينة البصرة. ويوجد على ضفة النهر كثير من المحلات وأماكن الأعمال والمخازن التي تتكدس فيها صادرات وواردات الحلة والنجف والأماكن الأخرى بانتظار تصريفها»[٤].

أصبحت الكوفة عقدة مواصلات برية ومائية. ففي عام١٣٢٧هـ/١٩٠٩ أصبح هناك خط ترام تجره الخيول بين الكوفة والنجف بطول ستة أميال يستخدم لنقل الركاب والبضائع، وقد أنشأته شركة أهلية[٥] وفي عام١٩١٠، امتدت خدمات السفن العثمانية عبر الفرات إلى الكوفة[٦] هذا فضلا عن وجود طريق الحج الجديد الذي يؤدي من الكوفة إلى مكة المكرمة مارا بالقادسية، التي أصبحت محطة الحجاج عام١٩١٥[٧].

(١) مشاهدات جون أشر-العراق، ص١٠٧.

(٢) المصدر نفسه، ص١١٠.

(٣) علي الشرقي، العرب والعراق (شركة الطبع والنشر، بغداد،١٩٦٣، ص١٢١ الجبوري تاريخ الكوفة الحديث، ج١ ص٢١٩، ص٢٢٢.

(٤) دليل الخليج، القسم الجغرافي، ج٣ ص١٢٨٧ ومن الجدير بالذكر فإن السفن ما بين الكوفة والحلة، كانت تصل إلى المسيب، وهذا ما أشار إليه بدج في رحلته، حيث سافر بين هاتين المدينتين عام١٨٩٠-١٨٩١، المصدر السابق، ج٢ص ١٧٩-١٨٠.

(٥) البراقي، المصدر السابق، ص٤٤٤ شارل عيساوي، التاريخ الاقتصادي للهلال الخصيب، ترجمة د.رؤوف عباس حامد (بيروت، ط١ ١٩٩٠) ص٣٩٨.

(٦) المصدر نفسه، ص٣٣٥.

(٧) موسيل المصدر السابق ص١٦٠.

وإلى جانب ذلك كله، فقد كان هناك جسر الكوفة الذي يربط الضفة اليمنى التي تقع عليها المدينة والجهة اليسرى، وتم إنشاؤه عام١٣١٧هـ/١٨٩٩م. ويتألف هذا الجسر من١٦قاربا طول كل منها٣٠قدما وعرضه١٠ أقدام وعمقه٤أقدام، ويصل اتساع طريق المركبات على هذا الجسر إلى ثماني أقدام وهناك حاجز يرتفع على حافتي الجسر يصل إلى ثلاثة أقدام، والجسر كما يقول لوريمر-في حالة سيئة الآن (أي سنة١٩٠٤-١٩٠٥)[٨].

وعلى أية حال، فإن قصبة الجسر، التي تمتد مسافة كيلومتر واحد من المدينة، وأصبحت مركز «ناحية الكوفة» قد غدت مركز تجارة الفرات الأوسط حتى ثورة العشرين، فقد أنكرت السلطات المحتلة ما لهذه المدينة من مكانه تجارية وسياسية ودينية فأهملتها في أن واحد[٩].

* * *

(٨) دليل الخليج، القسم الجغرافي، ج٣ ص١٢٨٦-١٢٨٧، انظر أيضاً البراقي، المصدر السابق ص٤٤٣-٤٤٤ حول تاريخ إنشاء الجسر ويذكر أن هذا الجسر ظل موجودا حتى ضربته القوات الانكليزية في ثورة العشرين وأزالت أثاره الحيوية تاريخ الكوفة الحديث، ج١ ص٢١٣.

(٩) عبد الرزاق الحسيني، العراق قديماً وحديثاً (منشورات دار اليقظة العربية، ط٧ بغداد، ١٩٨٢، ص١٣٨.